



في ظلال قُدرة الله

قدرة الله وإعجازه من آيات القرآن الكريم
وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم

إعداد:

د. محمد عمارة



فِي ظِلَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ

— قدرة الله وإعجازه: من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ —

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ



مقدمة

الحمد لله الذي بقدرته قامت السماوات والأرض، وبإرادته تصرّف الكون كله في حركته وسكونه، والصلاة والسلام على من أرسل رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فهذا كتيب صغير في موضوع عظيم: قدرة الله عز وجل كما تجلّت في آيات كتابه الكريم. جمعنا فيه طائفة واسعة من الآيات، وبدأنا بحور قدرته المطلقة على كل شيء بوصفه الأصل الذي تُبنى عليه سائر مظاهر القدرة، ثم تلوانه بخمسة محاور تفصيلية: خلق السماوات والأرض، الإحياء والإماتة، الآيات الكونية، البعث والنشور، ثم تصريف الكون وتدير الأمر. وقد آثرنا أن يكون التعليق على كل آية بأسلوب ابن القيم رحمه الله وحده: وعظماً للقلب، وربطاً بين المعرفة والعمل، وعلاجاً لأدواء النفوس بذكر أدويتها من هذه الآيات، على نحو ما نهج في كتبه كـ"مدارج السالكين" و"الفوائد" و"الداء والدواء".

والغاية من هذا العمل ليست جمع المعلومات، بل استحضار معنى واحد يتكرر في كل صفحة: أن الذي خلق هذا الكون بهذه الدقة، وأحيا الأرض بعد موتها،

وسيبعث الخلق بعد فنائهم، ويدبرّ شأن كل مخلوق في كل لحظة، هو نفسه القريب من عبده، السميع لدعائه، القادر على كل ما يعجز عنه سواه. فمن عرف قدرة ربه حقّ المعرفة، هان عليه كل عسير، وسكنت نفسه إلى كل قضاء.

نسأل الله أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.



فهرس المحاور

1

المحور الأول: قدرته المطلقة على كل شيء

2

المحور الثاني: قدرته في خلق السماوات والأرض

3

المحور الثالث: قدرته في الإحياء والإماتة

4

المحور الرابع: الآيات الكونية الدالة على القدرة

5

المحور الخامس: قدرته على البعث والنشور

6

المحور السادس: قدرته في تصريف الكون وتدير الأمر

المحور الأول: قدرته المطلقة على كل شيء

اعلم -رحمك الله- أن أصل كل داء في القلب إنما هو تعلّقه بغير مالكة، وانصرافه عن معرفة من بيده ملكوت كل شيء. والعبد ما دام سائراً في طلب الأسباب، منتقلاً من سبب إلى سبب، فقلبه معلق بها لا بمسببها، وذلك عين الشقاء. فإذا عرف العبد أن ثمّ رباً واحداً لا يشاركه في الملك أحد، ولا يعجزه في الأرض ولا في السماء شيء، انحلّت عن قلبه عُقد الخوف كلها، واستراح من عناء التعلق بمن لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً. وهذا هو الأصل الذي ينبغي أن يُبنى عليه كل ما سواه من معرفة القدرة في الخلق والإحياء والبعث والتدبير: أن يُعرف أولاً أنه سبحانه على كل شيء قدير، إطلاقاً بلا قيد، ثم يُنظر بعد ذلك في آثار هذا الإطلاق، كما يعرف السالك ربه أولاً قبل أن يخطو خطوة في طريقه إليه.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا
 فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا
 بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ
 عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ
 حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

سورة البقرة، الآية 255 (آية الكرسي)

تأمل قوله "لا تأخذه سنة ولا نوم"، فإن العبد مهما بلغ حرصه على حفظ من يحب،
 فلا بد أن يغفل عنه ساعة نومه، وربّه سبحانه لم يزل ولا يزال قيّوماً على خلقه،
 حافظاً لهم، لا يعتريه في ذلك فتور ولا غفلة. وقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه أن
 هذه الآية أعظم آية في كتاب الله، وحقّ لها ذلك، فقد جمعت من أصول التوحيد
 وصفات الكمال ما لم يجتمع في آية سواها: حياة كاملة، وقيومية شاملة، وملكاً محيطاً،
 وعلماً واسعاً، وكرسياً وسع السماوات والأرض دون أن يُثقله حفظهما. فمن
 استحضر هذه المعاني عند قراءتها، لم يبق في قلبه موضع لخوفٍ من مخلوق، إذ كيف
 يُخشى مخلوقٌ ورقبُ العبد هذا شأنه؟



إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

سورة البقرة، الآية 20 (وتكررت بنفس اللفظ أو قريب منه في مواضع عديدة من القرآن)

هذه الكلمة، على وجازتها، أصلٌ عظيم ينبغي أن يكون حاضراً في قلب العبد عند كل نازلة تنزل به. فإن القلب إذا استحضر شمول القدرة هان عليه كل عسير، وإذا غفل عنها ضاق بأدنى أمر واستوحش من أيسر خطب. وليست معرفة هذا الأصل معرفة عقلية مجردة، بل هي دواءٌ يُستعمل عند الحاجة، فتى ضاق بالعبد أمرٌ، فليردّ قلبه إلى هذه الكلمة يجدها كافيةً شافية، وليجعلها موثلاً يفرع إليه لا معلومة تمرّ على لسانه مرور الغافلين.



وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

سورة آل عمران، الآية 189

العبد يملك من أمور نفسه ما لا يقدر على التصرف فيه: يملك قلباً لا يملك دواءه إذا مرض، ويملك حالاً لا يملك تبديله إذا ساءه، ويملك غداً لا يملك الوثوق بما فيه. فليقتس هذا بملك الله الذي قُرِنَ بقدرة كاملة لا يعتريها نقص: فإذا كان ملك العبد ناقصاً معه، فملك الله كاملاً معه، وإذا عجز العبد عن أدنى شأنه، فربه لا يعجز عن أعظم شأن في السماوات والأرض. وفي معرفة هذا الفارق وحده سلوى لكل متعب، ودواء لكل من ضاق بتدبير نفسه.



لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ^ج وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

سورة المائدة، الآية 120

قوله "وما فيهنّ" يشمل من العبد كل ما يُظهره وما يُخفيه: سرّه الذي كتمه، وهمّه الذي أخفاه، وأمله الذي يخشى ألا يبلغه. فكل ذلك داخلٌ في هذا الملك الشامل الذي لا يخرج عنه شيء. فليعلم العبد أن ضعفه لا يُخرجه من دائرة قدرة من هذا ملكه، وأن خفاء حاله عن الناس لا يعني خفاءه عن مالك الملك كله.



وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

سورة النحل، الآية 77

من أعظم ما يُخَلِّ بيقين العبد أن يُقدّر أمر ربه بمقياس عجزه هو، فيستبطئ الفرج لأنه لا يرى سببه، أو يستبعد الإجابة لأنه لا يعرف طريقها. وقد أخبر الله أن أمر الساعة -وهي أعظم الأمور- كلمح البصر أو أقرب، فما ظنك بأمرٍ دون ذلك؟ فليكن هذا أصلاً في قلب العبد: ألا يقيس قدرة ربه بضعفه، ولا يستبعد وعده لأنه لا يرى سببه.



الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلِكَةِ رُسُلًا أُولَى
أَجْنَحَةٍ مِّثْنَى وَثُلَاثٍ وَرُبْعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

سورة فاطر، الآية 1

اعلم أن تفاوت الناس فيما بينهم -في الخلق والصوت والموهبة- ليس عبثاً ولا ظلماً، بل هو من قوله "يزيد في الخلق ما يشاء". فمن عرف هذا الأصل، سلم قلبه من داءٍ عظيم هو الحسد، فلا يسخط على ما فاته من زيادة أعطى غيره، إذ ليس نقصه ظلماً له، ولا زيادة غيره استحقاقاً منه، بل الجميع عطاءٌ محضٌ من مالك الزيادة كلها، يضعها حيث يشاء بحكمته لا بمجرد إرادة عمياء.



أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ عَنْهُنَّ
بِقُدْرِهِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

سورة الأحقاف، الآية 33

هذا من أوضح القياسات القرآنية: من قدر على الأعظم فهو على الأدنى أقدر، ومن خلق السماوات والأرض ولم يتعب في خلقهما، فإحياء الموتى -وهو دونهما في العظمة- عليه أهون. فمن كان في قلبه ريبٌ في وعد ربه، فليقس المستبعد بما هو أعظم منه وقد وقع، يجد أن استبعاده لم يكن إلا من قصور نظره لا من حقيقة الأمر.



يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

سورة التغابن، الآية 1

تأمل أن هذا الكون بأسره في حال تسبيح دائم لا يفتقر، فأَيُّ نقص أعظم من أن يكون قلب العبد وحده صامتاً وسط هذا التسبيح الكوني الشامل؟ فليجعل العبد قلبه ولسانه موصولين بذكر ربه، مشاركين هذا التسبيح لا منقطعين عنه، فإن أشرف ما يكون به القلب حياً أن يكون ذاكراً لربه على الدوام.



وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُهُ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ

سورة الزخرف، الآية 84

لا فرق عند ربوبيته سبحانه بين قربٍ وُبعد، ولا بين خلوة وزحمة الناس، فحيثما كان العبد فهو تحت سلطان واحد لا تتفاوت أحواله ولا تتغير رقابته. فليستج العبد من ربه في خلوته كما يستحي منه في علانيته، فإنه في السماء إليه وفي الأرض إليه، لا تخفى عليه من أمر عبده خافية، ولا يبعد عنه قريب ولا يقرب منه بعيد.

المحور الثاني: قدرته في خلق السماوات والأرض

اعلم أن التفكير في خلق السماوات والأرض من أجل العبادات القلبية، وقد أثنى الله على أهله فقال: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب"، ثم وصف هؤلاء بأنهم يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، فيصلون من هذا التفكير إلى الدعاء والخشية. فليس المقصود من هذا المحور معرفة عقلية تُحفظ، بل عبادة قلبية تُمارس: أن ينظر العبد في هذا الخلق العظيم فيزداد به إيماناً وخشوعاً، لا أن يمر عليه مرور الغافلين.



هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ
فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

سورة البقرة، الآية 29

تأمل أن الله بدأ الامتتان بذكر الأرض التي هي موضع حسك قبل أن يذكر السماء التي هي موضع غيبك، وفي هذا إشارة إلى أن معرفة الله تبدأ بما يُشاهد ثم تنتقل

إلى ما يُصدَّق به غيباً. فمن عجز عن شكر النعمة القريبة، كيف يزعم أنه بلغ حقيقة الإيمان بالنعمة البعيدة؟ فليبدأ العبد بشكر ما يرى، يُعِنه ذلك على التسليم بما لا يرى.



إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
 اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ
 وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ
 اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

سورة الأعراف، الآية 54

انظر كيف ختمت الآية بقوله "ألا له الخلق والأمر"، فقرنت بين ربوبيته الكونية
 وربوبيته الشرعية: فمن كان له الخلق وحده، كان له الأمر والتشريع وحده أيضاً،
 فلا يجوز أن يُتلقى حكمٌ إلا منه، ولا أن يُعبد سواه. وهذا أصلٌ عظيم: أن توحيد
 الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، فمن أقرّ بالأول ولم يلتزم الثاني فقد ناقض نفسه.



وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ
عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

سورة هود، الآية 7

تأمل أن الله ربط أعظم مشهد كوني -خلق السماوات والأرض- بأدق شأن يخص العبد: عمله. فما خلق هذا الكون عبثاً، وإنما خلق ليكون دار ابتلاء يُميز فيها المحسن من المسيء. وقد نبّه سبحانه بقوله "أحسن عملاً" لا "أكثر عملاً"، فالملقود صلاح العمل وإخلاصه لا كثرته، وهذا أصل ينبغي أن يستحضره كل عامل: أن ينظر إلى إتقان عمله وإخلاصه فيه، لا إلى مقداره وحده.



أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا^ط
وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ^ط

سورة الأنبياء، الآية 30

فمن كان قلبه مرتوقاً بالهموم لا ينفك عنها، فليعلم أن الذي فتق السماوات عن الأرض قادراً أن يفتق قلبه عن كربه، وما ذلك على قدرته بعزیز. وفي جعل الماء أصلاً لكل حي إشارة إلى افتقار كل شيء حيٍّ إلى ما ليس منه في ذاته، فكما يفتقر الجسد إلى الماء الذي هو خارج عنه، يفتقر القلب إلى ربه الذي هو غني عنه، وذلك أصل التوحيد: أن يعرف العبد كمال فقره وكمال غنى ربه عنه.



قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ
 أَنْدَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوْسِيًّا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكٌ
 فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ أَسْتَوَى
 إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا
 قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَفَضَّضَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي
 كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
 الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

سورة فصلت، الآيات 9-12

تأمل هذا المشهد العظيم: السماء والأرض تُخاطبان بأمر التكوين فتجيبان "أتينا طائعين". فإذا كان هذا انقياد الجماد، فما عذر العبد المكلف المختار إذا تردد في طاعة ربه؟ وهذا من أعظم ما يُنجل القلب: أن يكون الجماد أسبق إلى الانقياد من صاحب العقل والإرادة، وهو أولى بالطاعة منه.



وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ

سورة الذاريات، الآيات 47-48

قوله "وإننا لموسعون" أصل في سعة قدرة الله وعدم انحصار عطائه عند حدّ. فمن ضاق به أمر، أو ظنّ أن باب الرزق قد سدّ دونه، فليعلم أن الذي وسّع السماء لا يضيق به أن يوسّع عليه أمره، وأن اليأس من سعة عطاء الله من أعظم آفات القلب التي ينبغي معالجتها بمعرفة هذا الأصل: أن خزائنه لا تنفد بكثرة السائلين.



اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ
 وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ
 يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ

سورة الرعد، الآية 2

فليتأمل العبد هذا السقف المرفوع بلا عمد يُرى، الثابت منذ خلقه لا يميل، ثم
 ليقس على ذلك ثبات إيمانه: أفلا يستحق من أمسك السماء بغير سبب ظاهر أن
 يُمسك العبد قلبه عن التعلق بغير من أمسكها؟ فإن استقرت السماء بلا عمد تراه
 العين، فليستقر القلب بيقين لا تراه العين، وهو أثبت من كل عمد يُشاهد.



وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا
مِنْ لُغُوبٍ

سورة ق، الآية 38

نفى الله عن نفسه اللغوب -وهو التعب من طول العمل- في خلقه لهذا الكون الشاسع، تنزيهاً له عن مشابهة المخلوقين. فإذا كان هذا شأنه في أعظم الخلق، فكيف يُستبعد أن يُحيي قلباً ميتاً بالغفلة، أو يفرّج كرباً أثقل صاحبه؟ إن من لم يتعب في الخلق الأول، لا يُعييه أن يرزق عبده بلا حساب، ولا أن يجيب دعاءه في أخفى الأحوال.



الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ

سورة الملك، الآيتان 3-4

أمر الله بترديد النظر مرتين تأكيداً على انتفاء العيب، وفي هذا تعليمٌ للعبد ألا يكتفي بنظرة عابرة عند طلب الحق، بل يُكرّر النظر والتأمل حتى يتبين له اليقين. فليرجع العبد بصره كما أُمر في السماء، فإذا لم يجد فيها فطوراً، فليرجع قلبه كذلك في توحيد ربه، يجده كاملاً لا نقص فيه ولا عيب، كما لم يجد في خلقه نقصاً ولا عيباً.



أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا
شِدَادًا

سورة النبأ، الآيات 6-7 و12

تأمل هذه الثلاثة: أرضٌ كالمهد يهدأ عليها العبد، وجبالٌ كالأوتاد لا تميد به، وسماؤه كالبناء المحكم لا يتصدع. فكل هذا أحكم من أجل استقرار العبد، فحقُّ عليه أن يستقر قلبه - في المقابل - على من أحكم له هذا الاستقرار كله. فمن سكن إلى فراش ممهد ووتد ثابت وسقف محكم، ثم لم يسكن قلبه إلى من أحكم هذا كله، فقد أساء التدبير لنفسه أعظم الإساءة.



ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بِنْهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا *
وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا *
أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا

سورة النازعات، الآيات 27-32

هذا استفهامٌ يلجم كل من استكبر عن الانقياد لأمر ربه: أهو أشد خلقاً أم هذه السماء المرفوعة بلا عمد؟ فإذا كان الجواب البديهي أن السماء أعظم، فليعلم المستكبر بضعفه أن من رفع هذا السقف قادرٌ - من باب أولى - على كل ما يستكبر هو عن الخضوع له. وهذا من أنفع ما يُعالج به داء الكبر: أن يُقاس العبد بما هو أعظم منه فيرى حقيقة صغره.



إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ

سورة آل عمران، الآية 190

سمي أهل التفكير في هذا الخلق "أولي الأبواب"، أي أصحاب العقول الخالصة من شوائب الغفلة، وقد وصفهم الله بعدها بأنهم يذكرون الله في كل أحوالهم، ويتفكرون فيشمر تفكيرهم دعاءً وخشية. فمن نظر في هذا الخلق ولم يحدث نظره في قلبه شيئاً من ذلك، فليعلم أنه نظر بعينه دون قلبه، ونظر العين وحدها لا تُفيد يقيناً، وإنما اليقين ثمرة نظر القلب.

هذه طائفة من آيات القدرة في خلق السماوات والأرض، من التسخير إلى الفتق، ومن الأيام الستة إلى البناء المحكم. وقد تبين أن معناها كله يرجع إلى أصل واحد: أن هذا الكون بأسره أثر قدرة واحدة، لا تعجز عن شيء ولا يشاركها فيه أحد. فحق على العبد إذا سار في هذا الكون ناظراً، ألا يجعل نظره نزهة عابرة، بل عبادة قلبية تُثمر معرفة بربه وخشوعاً له.

المحور الثالث: قدرته في الإحياء والإماتة

اعلم أن القلب - كالبدن - له حياة وموت، وحياته بمعرفة ربه ومحبه وذكره، وموته بالغفلة عنه والإعراض عن ذكره. وقد ضرب الله لهذه الحقيقة أمثالاً حسية يشاهدها العبد في نفسه وفي الآفاق: أرض ميتة يُحييها الغيث، وعظامٌ بالية يُعيدنها الإنشاء، ونفوسٌ غافلة يُحييها ذكر ربها. فمن تأمل إحياء الأرض بعد موتها، عرف أن قلبه أيضاً قابلٌ للإحياء بعد موته، وأن الذي أنزل الغيث على الأرض الهامدة قادرٌ أن ينزل على قلبه غيث الهداية فيحييه بعد طول جنافه.



وَمِنْ ءَايَتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ
 أَهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ^ج إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ ^ج إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ

سورة فصلت، الآية 39

هذا قياسٌ ظاهر لا يخفى على عاقل: من أحيا الأرض بعد خشوعها وييسها، فهو على إحياء الموتى أقدر. وقلب العبد كذلك: تراه خاشعاً قاسياً في زمن الغفلة، فإذا نزل عليه غيث الذكر والقرآن اهتزّ وربما كما تهتزّ الأرض وتربو. فيطلب العبد لقلبه ما يطلبه للأرض من غيث، وليعلم أن قسوة القلب لا يُصلحها إلا ذكر من بيده الإحياء.



وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ
وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْهٗ يُحْيِ
الْمَوْتِ وَأَنْهٗ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

سورة الحج، الآيات 5-6

انظر كيف علّق إحياء الأرض بكونه سبحانه "الحق"، فالباطل لا يُحيي ولا يُبقي،
وكل حياة تتجدد في الكون شاهدةً على أن الحق قائمٌ لا يزول. فمن أراد أن يعرف
ربه بأسمائه وصفاته، فلينظر في هذه الآيات الكونية، فإنها من أقرب الطرق إلى
معرفته، إذ الأثر يدلّ على المؤثر، والفعل يدلّ على الفاعل وكما له.



وَعَايَةَ لَهُمُ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةَ أَحْيَيْنَهَا وَآخَرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ

سورة يس، الآية 33

تأمل أن كل رغيّف يأكله العبد هو أثرٌ من آثار إحياء الأرض الميتة، ومع ذلك يمرّ عليه أكثر الناس دون التفات. وهذا من أعظم أدواء القلب: أن نتكرّر عليه النعمة فيُلْفِها الاعتقاد حتى تسقط من عين اعتباره. فليجاهد العبد نفسه على استحضر هذه الآية عند كل طعام يأكله، حتى تصير عادته اليومية عبادة قلبية متجددة.



وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ*
قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ

سورة يس، الآيتان 78-79

لاحظ أن الجواب لم يكن مجرد إخبار، بل حجة عقلية مبنية على أصل السؤال نفسه: من أنشأ الشيء من عدم، بإعادته من بقايا موجودة أهون عليه. وهذا من أنفع ما يُعالج به وسواس الشك في البعث: أن يُردَّ العبد المسألة إلى أصلها، فيتذكر أنه هو نفسه كان عدماً فأُنشئ، فكيف يستبعد أن يُعاد وقد كان له نظير سابق في الإنشاء الأول؟



تُجْلُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتُجْلُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ^ط وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ^ط وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

سورة آل عمران، الآية 27

هذه الآية من أدعية النبي ﷺ في قيام الليل، حين يخلو القلب بربه في جوف
الظلام، فيناجيه بهذه الأسماء والصفات. وفي هذا تعليمٌ للعبد: ألا يجعل معرفته
بقدره الله علماً نظرياً يُقال في مجالس العلم فحسب، بل مناجاةً تُتلى في خلوته، فإن
القلب لا يستنير بالمعرفة وحدها، بل بما يقترن بها من ذكر وتضرع في ساعات الخلوة
والصفاء.



أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ^ط قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ^ط قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ^ط وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً^ج لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا^ط فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ^ط قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

سورة البقرة، الآية 259

تأمل أن الله لم يكتفِ بإخبار هذا العبد، بل أراه رأي عينه: طعام لم يتغير، وحمار عاد إلى الحياة أمامه عظماً فطحماً. وفي هذا دليل على أن طلب زيادة اليقين بالمشاهدة لا ينافي كمال الإيمان، بل قد يكون من تمام رحمة الله بعبد أن يُريه ما آمن به غيباً. وختم هذا العبد تجربته بكلمة ينبغي أن يختم بها كل قلب شكوكه: "أعلم أن الله على كل شيء قدير".



وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ^ط قَالَ أُولَٰئِ هُم ^ط
 قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ^ط قَالَ نَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ
 إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ
 سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

سورة البقرة، الآية 260

تأمل أدب الخليل عليه السلام في سؤاله: "بلى ولكن ليطمئن قلبي"، فلم يكن سؤاله شكاً، بل شوقاً إلى مزيد يقين تسكن به النفس. وهذا يعلم العبد أن طلب طمأنينة القلب في أمور الغيب ليس نقصاً في الإيمان، بل من أرقِّ أحوال المحبين الذين لا يمتنعون بالخبر المجرد، بل يطلبون ما يزيدهم قرباً وسكينة، وقد أجاب الله سؤال خليله فأراه ما طلب.



أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ
فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ

سورة البقرة، الآية 243

تأمل أن هؤلاء فروا بأجسادهم حذر الموت، فما نفعهم فرارهم شيئاً، إذ لا مفرّ من قدر الله لمن أراد الفرار منه. وهذا أصلٌ ينبغي أن يستقر في قلب العبد: أن الحذر لا يدفع القدر، وأن التوكل الحق ليس تركاً للأسباب بل عدم الاعتماد عليها، فمن اعتمد على سببه فرّ من قدر الله بقدر الله، ولم ينجّه ذلك من شيء أرادَه ربه.



هُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ

سورة الحج، الآية 66

تأمل هذه الدورة التي يمرّ بها كل عبد: إحياء، فإماتة، فإحياء آخر، ومع هذا التكرار الواضح يختم الله الآية بـ"إن الإنسان لكفور"، أي أن أكثر الناس يمرّون على هذه النعمة المتجددة دون شكر يليق بها. فليجعل العبد كل نفس يتنفسه سبباً لتجدد شكره، لا مناسبة لتبلّد إحساسه، فإن الغفلة عن النعمة المتكررة من أعظم أسباب الحرمان منها.



هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ

سورة غافر، الآية 68

"كن فيكون" -أوجز عبارة تصف أعظم فعل، لا مهلة فيها ولا عناء. فمن كان في قلبه استبطاء لفرج أو إجابة، فليعلم أن المسافة بين حاله وما يرجوه ليست عند من هذا أمره إلا كلمة، فليحسن الظن بربه، وليعلم أن التأخير قد يكون لحكمة لا لعجز، وأن العسر مهما طال، فهو بين يدي قدرة لا تحتاج إلا أن تقول للشيء "كن".



الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ

سورة الملك، الآية 2

تأمل أن الموت خُلق كما خُلقت الحياة، فهو مخلوقٌ مقدّر لا طارئ عابر ولا عدوّ يُحارب. ومن عرف هذا الأصل، هان عليه استقبال الموت بقلبٍ مُسلمٍ لا جازع، إذ ليس الموت انقطاعاً عن التدبير، بل هو جزء منه. وختمت الآية بـ"العزیز الغفور"، وفي هذا القرن بين عزّته التي لا تُردّ وبين مغفرته التي تُرجى، تعلیمٌ للعبد ألا يكون خوفه من القدرة مانعاً له من الرجاء في الرحمة.

هكذا تدور آيات الإحياء والإماتة بين مشاهد الطبيعة ومشاهد القصص، لتقرر أصلاً واحداً: أن من بيده الإحياء والإماتة لا يُستبعد عليه شيء. وأنفع ما يُستفاد من هذا المحور أن يقيس العبد حال قلبه على حال الأرض: فكما تُحيا الأرض بالغيث، يُحيا القلب بالذكر والقرآن، وكما تموت الأرض بالجفاف، يموت القلب بالغفلة والإعراض. فليطلب العبد لقلبه حياته الحقيقية، فإنها خير له من حياة بدنه.

المحور الرابع: الآيات الكونية الدالة على القدرة

اعلم أن الله سبحانه نصب في الآفاق آياتٍ لا تُحصى، يراها العبد صباح مساء، وهي في حقيقتها دعوةٌ متجددة إلى معرفته ومحبته. فالشمس والقمر والرياح والجبال والبحار كلها جنودٌ مسخرة، لا تملك لأنفسها ضراً ولا نفعاً، وإنما هي آثار قدرة من لا إله غيره. ومن فقه هذا الأصل، لم ينظر إلى شيء من هذه الآيات نظرة عابرة، بل جعل كل مشهد كوني سبباً لزيادة يقينه، إذ العبرة ليست في كثرة العلم بالكون، بل فيما يُحدثه هذا العلم في القلب من خشية وإناية.



وَأَيُّهُ لَهُمُ الْيَلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ
تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ^ج ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ
حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ
الْقَمَرَ وَلَا الْيَلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ^ج

سورة يس، الآيات 37-40

تأمل هذا النظام الذي لا يعرف انخطأ منذ بدء الخلق: شمس لا تُدرك قمرًا، وليل لا يسبق نهارًا. ومن قاس على هذا حال قلبه، علم أن ما قُدِّر له بمثل هذه الدقة لن يتأخر عن وقته طرفة عين. وفي هذا علاجٌ لداء القلق على الرزق والأجل: أن يعلم العبد أن الذي قُدِّر مسير الشمس والقمر بهذه الدقة، قُدِّر له رزقه وأجله بمثلها، فلا يستعجل ما أُخِّر، ولا يظن أن ما قُدِّر له سيُخطئه.



وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ^{صَلٰ} كُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ

سورة الأنبياء، الآية 33

تأمل أن الشمس والقمر، وقد عبدهما أقوامٌ من دون الله، هما في حقيقتهما مخلوقان مسخران لا يملكان لأنفسهما استقراراً. وهذا أصلٌ في إبطال كل تعلّق بغير الله: فإن كل ما تعلّق به قلبك من الأسباب الظاهرة -مالاً كان أو جاهاً أو سبباً- هو كالشمس والقمر، مسخرٌ لا يملك لنفسه شيئاً، فكيف يُرجى منه ما لا يملكه لنفسه؟



هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ *
وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خَيْفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ
فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ

سورة الرعد، الآيتان 12-13

تأمل أن الرعد يسبح بحمد ربه، فإذا سمعه العبد فليشارك هذا التسبيح لا أن ينفرد
بالفزع منه وحده. وفي ختام الآية بذكر من يجادل في الله وهو شديد المحال، عبرة
لكل من يخاصم في قدر الله وحكمه: أن يعلم أن مجادلته لا تدفع عنه شيئاً، وأن
الأولى به أن يشتغل بالتسليم لا بالمنازعة، فإن المحال الشديد لا يُغالب.



اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتَنِيْرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ
وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۚ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ
مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ

سورة الروم، الآية 48

تأمل قوله "كيف يشاء"، فحتى شكل السحاب وتوزيعه خاضع لمشيئة مباشرة لا
لقوضى عمياء. فليقتس العبد على هذا تقلب أحواله: فكما يبسط السحاب بإرادة،
تبسط أحواله وتقبض بحكمة، وإن غاب عنه وجهها. وفي استبشار الناس بالمطر
فطرة تشهد بلا وعي أن هذا رزق من مدبر لا من مصادفة، فليتم العبد هذه الفطرة
بالمعرفة والذكر حتى تصير يقيناً واعياً.



وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَّحًا فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ
لَهُ بِمُخْزِنِينَ

سورة الحجر، الآية 22

قوله "وما أنتم له بمخزنين" أصلُ نافعٍ لعلاج داء الإعجاب بالنفس: أن يعلم العبد أن كل نعمة ينتفع بها -حتى الماء الذي يشربه- لا يملك خزنها ولا استحداثها، وإنما هو مستقبلٌ لعطاء لا يد له فيه. فمن استحضر هذا في كل نعمة يراها، خرج من قلبه الإعجاب والفخر، وحلَّ محله الافتقار الدائم إلى المنعم وحده.



أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقِ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى
 الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ
 بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا
 بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ

سورة النور، الآية 43

تأمل هذا التدرج: سوق، فتأليف، قترام، فطر أو برد، وكل مرحلة منها بأمر مقصود لا اتفاقاً. فليعلم العبد أن أطوار حياته كذلك تساق رفقا حتى تبلغ حالها المقدر، وإن حسب السوق عسيراً، فلعله تمهيد لغيث هو في أشد الحاجة إليه، فلا يستعجل ولا يسخط قبل أن يرى تمام التدبير.



إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ^ج وَلَئِنْ زَالَتَا ^ج إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ^ج إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا

سورة فاطر، الآية 41

اعلم أن ثبات السماوات والأرض ليس صفة قائمة بذاتها، بل فعلٌ يتجدد كل لحظة من يدِ مُمسِكٍ ولا تفتقر. فليقس العبد على هذا ثباته هو: فإن استقراره أيضاً ليس ملكاً له، بل عاريةٌ من يدِ مُمسكه كما تُمسك السماء. وفي ختام الآية بـ"حليماً غفوراً" مع أنها في سياق القدرة، تعلمُ أن عظمة القدرة لا تُنافي سعة الرحمة، فلا يكون خوف العبد من القدرة مانعاً من رجائه في المغفرة.



وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَانْحَرَا وَسَلْبًا لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ

سورة النحل، الآية 15

تأمل أن الجبال التي تراها شامخة صامته هي في حقيقتها أوتادٌ تمنع الأرض أن تميد بك. فلا تحقرن -أيها الناظر- ما يبدو لك جامداً ساكناً، فربما كان أعظم أثراً في ثباتك مما تحسبه فعّالاً متحركاً. وكذلك القلب: قد يكون سكونه إلى ذكر ربه أوتاداً تمنعه من ميدان الفتن، وإن كان في ظاهره سكوناً لا حركة فيه.



مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ

سورة الرحمن، الآيتان 19-20

تأمل بحرين يلتقيان في موضع واحد، ولا يفقد أحدهما خصائصه لوجود برزخ لا تراه العين لكن تراه آثاره. وليتعلم العبد من هذا أن يجمع في قلبه بين حالين قد يُظنّ تعارضهما: الخوف والرجاء، فلا يطغى أحدهما على الآخر فيفسده، بل يكون بينهما برزخٌ من الاعتدال، كما بين البحرين برزخ لا يبغيان.



أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا
الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ

سورة الملك، الآية 19

تأمل جناحين صغيرين يحملان جسداً في الهواء بلا سند مرئي، فما الذي يمنعه من السقوط في كل لحظة إلا يدٌ خفية أمسكته؟ فليقس العبد على هذا حاله في توكله: فكما لا يُمسك الطير إلا الرحمن، فأمر العبد المضطرب لا يُمسكه إلا هو، وإن حسب أن ماله أو جاهه هو ما يحمله، فذلك من ظنّ الطير أنه يطير بقوته لا بمن أمسكه.

من الشمس التي لا تدرك القمر، إلى الرعد المسبّح، إلى السحاب المتراكم، إلى الجبال الراسية، إلى البحرين الملتقيين، إلى الطير المخلّق بلا سند: كل هذه آيات تحيط بالعبد من كل جانب، لا يحتاج أن يبحث عنها بعيداً. فحق عليه أن يجعل خطاه اليومية طوافاً بين هذه الآيات، لا عبوراً غافلاً عنها، فإن معرفة الله بآياته الكونية من أقرب الطرق إلى محبته وخشيته.

المحور الخامس: قدرته على البعث والنشور

اعلم أن الإيمان بالبعث ركنٌ من أركان الإيمان لا يصح إسلام العبد إلا به، وقد أقام الله عليه من الأدلة العقلية والحسية ما يقطع عذر كل مرتاب: قياس الإعادة على البدء، وقياس إحياء الأرض على إحياء الأجساد، وقياس الأصغر على الأعظم. فمن تدبر هذه الأدلة، عرف أن إنكار البعث ليس صادراً عن قوة عقل، بل عن غفلة عن مقتضى العقل نفسه، إذ من أقر بالخلق الأول لزمه أن يقرّ بالإعادة، ومن جردها بعد ذلك فقد ناقض أصل إقراره.



وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ
الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

سورة الروم، الآية 27

هذا قياسٌ لا يخفى على عاقل: أنت الآن، بكل تعقيد جسدك وعقلك، كنت يوماً عدماً محضاً لا ذكر لك. فمن أخرجك من العدم ولم يكن ذلك عليه عسيراً، كيف يُستبعد أن يعيدك بعد أن كنت موجوداً؟ فليكن إيمان العبد بالبعث امتداداً ليقينه

بنفسه، لا تصديقاً بغيرٍ منفصل عن واقعه، فإنه بنفسه أعظم شاهد على ما يستبعده عقله.



كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا^ج إِنَّا كُنَّا فَعَلِينَ

سورة الأنبياء، الآية 104

تأمل قوله "وعداً علينا"، فهذا التزامٌ من الله بلفظ الوعد الذي لا يُخلف. وقد جبل الله القلوب على السكون إلى وعد الصادق، فكيف بوعد من لا يُتصور في حقه الخُلف؟ فليتعلق قلب العبد بهذا الوعد لا بوعود المخلوقين المتقلبة كأحوالهم، فإن من وثق بغير موعود الله خاب رجاؤه يوماً، ومن وثق بوعد لم يخب أبداً.



أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
 بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ
 كُنْ فَيَكُونُ

سورة يس، الآيتان 81-82

"بلى" - كلمة واحدة تقطع كل شك. فمن آمن بأن الله خلق السماوات والأرض،
 لزمه أن يؤمن أنه قادر على إعادة خلق ما هو أصغر منها بكثير، وإلا وقع في تناقض
 ظاهر: أن يُقرّ بالأعظم ويوجد الأدون. وقوله "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له
 كن فيكون" يقطع كل توهم عن مشقة أو مهلة، فليس بين إرادته ووقوع مراده إلا
 نفاذ الأمر.



نَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

سورة غافر، الآية 57

حين يستعظم القلب أمر البعث، فليندرك نفسه بما هو أعظم منه، موجودٌ أمام عينيه كل يوم: السماء والأرض. فإن كان عقله يُسلم بوجود الأعظم دون جدال، فليُسلم من باب أولى بإمكان الأصغر. وقوله "ولكن أكثر الناس لا يعلمون" تنبيهٌ إلى أن هذه الحقيقة البديهية تغيب عن أكثر القلوب لا لعسرها، بل لغفلتها عن التأمل فيها.



أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَدَرِينَا عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ
بَنَانَهُ

سورة القيامة، الآيات 3-4

لم تقتصر الآية على جمع العظام، بل نصّت على "تسوية البنان" -أدقّ ما في الجسد وأكثره تفرّداً بين الناس. فمن كان في قلبه وسواسٌ في أن تفاصيله الصغيرة تضيع في زحمة الخلق، فليعلم أن من يُعيد بصمة إصبعه كما كانت، لن يُضَيِّعَ منه شيئاً مهما دقّ أو خفي. فالذي يُحصي الدقائق هو نفسه الذي لا يُغفل الجلائل.



فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً * وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً

سورة الحاقة، الآيات 13-14

تأمل أن "نفخة واحدة" تكفي لتدمير هذا الكون الشاسع الذي وقفنا أمام عظمته في المحاور السابقة. فمن كان مغترباً بثبات ما حوله من أسباب الدنيا، فليعلم أن كل ما يعتمد عليه من ثبات هشٍّ أمام أمرٍ واحد. ومن كان هذا شأنه في الإفاء، فليس بعيداً عليه شأنه في الإحياء من بعد، فلا يُقنِطُ العبدَ هولُ هذا المشهد، بل يدفعه إلى الاستعداد له.



وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ *
قَالُوا يُؤِيلِنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۚ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ
الْمُرْسَلُونَ

سورة يس، الآيتان 51-52

تأمل أن الأموات جميعاً -من أولهم إلى آخرهم- يخرجون من قبورهم مسرعين
بنفخة واحدة، حتى يظنّوا من هول الأمر أنهم كانوا نياماً لا أمواتاً. فليعلم العبد أن
يقظته الحقيقية لم تأت بعد، وأن أعظم استيقاظ ينتظره حين تُنفخ تلك النفخة،
فليعدّ لهذه الصحوة جواباً يليق بها، ولا يجعل نوم الغفلة في هذه الدنيا يطول عليه
حتى ينساها.



وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أَيْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ^ج
كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ^ج
فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا^ط قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

سورة الإسراء، الآيتان 49-51

تحدّ لا يقبل جواباً إلا التسليم: "كونوا حجارة أو حديدًا"، ومع ذلك فقدرة من
فطركم أول مرة تتجاوز كل حاجز يتخيله العقل. فمن احتمى بصلافة زائفة ظناً منه
أنها تعصمه من قدر الله، فليعلم أنه لا جريعهصمه ولا حديد يمنعه، فالذي فطره من
عدم لا يحول بينه وبينه حاجز مهما بدا منيعاً.



وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ

سورة الحج، الآية 7

"لا ريب فيها" - جزمٌ لا يترك للتردد موضعاً. فمن كان يسوّف بتوبته، ويؤجل حسابه إلى غدٍ لا يدري أيبلغه، فليعلم أن كل قبر سيفتح، وكل رفات سيُبعث، بأمر من لا يُعجزه شيء. فليكن يقين العبد بهذا اليوم دافعاً لعمله اليوم، لا خبراً يحفظه بعقله وينساه بقلبه.

هكذا يتكامل هذا المحور مع ما قبله: من قدر أن يبدأ الخلق من عدم، ومن قدر أن يُحيي الأرض الميتة كل عام، لا يُستبعد عليه أن يجمع العظام المتفرقة ويعيد الأرواح إلى أجسادها بنفخة واحدة. فليكن البعث حاضراً في قلب العبد لا غائباً عن يقينه، فما هو أمر غيبي معزول عن واقعه، بل امتدادٌ لسنة يشهدها في كل موسم وكل يوم.

المحور السادس: قدرته في تصريف الكون وتدبير الأمر

اعلم أن من أصول التوحيد التي ينبغي أن يعرفها العبد كمال ربوبية الله وتفردّه بالتدبير، فلا يخرج عن مشيئته وتدبيره كائنٌ ولا حادثة، لا في السماء ولا في الأرض. وهذا التدبير لا ينقطع لحظة، بل هو متجددٌ في كل آنٍ يُقلب الليل والنهار، ويصرف الملك بين من يشاء، ويُقدر الأرزاق والآجال. فمن عرف هذا التدبير الشامل، سكن قلبه واطمأن، إذ علم أن يد التدبير التي أحكمت الكون كله لن تهمل شأنه، وإن حسب هو شأنه صغيراً لا يستحق الالتفات.



قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ
وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ
الْأُمُورَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ

سورة يونس، الآية 31

تأمل أن "من يدبّر الأمر" سؤالٌ يشمل كل خيط في نسيج حياة العبد: قراراً
اتخذه، وباباً فُتح له في غفلة منه. فمن نسي أن يُدبّر أمره لا يُدبّرهُ هو بنفسه، وقع في
الحيرة والاضطراب. وقد ختم الله هذا السؤال بـ"أفلا تتقون"، توبيخاً لمن يُقرّ بلسانه
أن الله هو المدبّر، ثم يتصرف بقلبه وكأنه هو المدبّر لنفسه.



يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ
مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ

سورة السجدة، الآية 5

تدبيرٌ يمتدّ من أعالي السماء إلى أدنى نقطة في الأرض، بلا فجوة ولا غفلة. فلا يظنّ العبد أن أمره -مهما بدا له صغيراً- يخرج عن هذا التدبير الشامل، فالذي يدير المجرات لا يشغله شأنٌ عن شأن، إذ لا "مشغلة" عنده أصلاً تُشغله عن شيء، بخلاف المخلوق الذي يشغله أمرٌ عن أمر.



قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ
تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ^طبِيَدِكَ الْخَيْرُ ^طإِنَّكَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ

سورة آل عمران، الآية 26

تأمل أن كل ملكٍ زائل تراه في الدنيا -دولةٌ تقوم وأخرى تسقط، عبدٌ يعلو ثم يُذلّ- ما هو إلا مشهدٌ متكرر لهذه الآية. فمن تعلّق بعزٍّ يخشى زواله، أو أيس من عزٍّ يظنه بعيد المنال، فليردّ هذا الدعاء بقلب حاضر: "تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء"، فلا يغترّ بثابت، ولا ييأس من آتٍ، فكلاهما بيد واحدة تُقلّب الأحوال كيف تشاء.



يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ج

سورة الرحمن، الآية 29

"كل يوم هو في شأن" - آية ينبغي أن توقف قلب العبد من غفلته كل صباح. فليس العبد ذرة ضائعة في زحمة هذا الكون الهائل، بل الذي يدبر مجرات السماء هو نفسه من يدبر شأنه في هذه اللحظة بعينها. فليطمئن قلبه، ولا يظن أن كثرة الخلق تُشغل ربه عن النظر إليه، فلا "شأن" يشغله عن "شأن" آخر.



إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ

سورة القمر، الآية 49

هذا أصلٌ عظيم في باب الإيمان بالقدر: أن كل شيء في هذا الكون - كبيره وصغيره - خُلِقَ بمقدار سابق في علم الله، لا عبثاً ولا اتفاقاً. فمن آمن بهذا الأصل حق الإيمان، سكنت نفسه إلى كل قضاء، وعلم أن ما جرى له لم يكن مصادفة عمياء بل تقديرًا سابقاً بعلم من لا يند عن علمه شيء، وفي هذا اليقين علاج لأعظم أدواء القلوب: السخط على القدر.



وَحَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا

سورة الفرقان، الآية 2

"فقدَّره تقديرًا" - تأكيدٌ فوق تأكيد، يُرسِّخ في القلب أن كل شيء حوله مُقدَّر بدقة، من مدار المجرة إلى نبضة قلبه التي لا يشعر بها. فلا يعجب العبد من دقة تقديرٍ يخصّه، فليس استثناءً في كونٍ كله مُقدَّر بميزان لا يخطئ، وليس له أن يسأل "لمَ" عن تقدير لم يُطلَّع على حكمته، بل عليه التسليم لمن أحاط علمه بكل شيء..



وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ مَسْخَرَتُ
بِأَمْرِهٖ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

سورة النحل، الآية 12

تأمل كم نعمة يستخدمها العبد كل يوم بلا التفات: الليل الذي ينام فيه، والنجوم التي يهتدي بها، وهي في أصلها مسخرة له بأمر، لم يحصل عليها بجهد ولا يملك ردها. فمن كان عاجزاً عن صنع ليلة واحدة أو نجم واحد، فكيف يدعي الاستغناء وهو غارق في تسخير لم يطلبه؟ فليكن هذا التسخير سبباً لشكر متجدد لا لغفلة معتادة.



وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَٰبِّينَ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

سورة إبراهيم، الآية 33

تأمل شمساً وقمرأ يعملان بلا كلل منذ آلاف السنين، لا يطلبان أجراً ولا راحة، لأنهما مسخران بأمر لا يقبل التوقف. فمن كان متعباً من القيام بواجباته اليسيرة، فليُنظر إلى دأب هذين النيرين، وليستح أن يفتر عزمه عن طاعة يسيرة وهما لا يفتران عن تسخير عظيم، فإن مداومة القليل من العمل خيرٌ من انقطاع الكثير.



وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا
رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ

سورة الأنعام، الآية 59

ورقة واحدة تسقط في أبعد غابة، لا يراها إنسان ولا يشعر بها أحد، ومع ذلك فهي مكتوبة معلومة عند من لا يند عن علمه شيء. فمن كان يخاف أن يغيب أمره عن علم ربه، فليعلم أنه إن كانت ورقة صامته في ظلمة لا تغيب عنه، فكيف يغيب عنه دمه، أو أنينه في جوف الليل، أو سره الذي لا ييوح به لأحد؟



مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مِّن قَبْلٍ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ

سورة الحديد، الآية 22

اعلم أن كل ما يصيب العبد من خير أو ابتلاء لم يكن مفاجأة عند الله، بل كان معلوماً مكتوباً قبل أن يُخلق هو أصلاً. فمن تألم من مصيبة يظنّ قلبه أنها ظلمٌ أو عبث، فليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وفي هذا اليقين وحده - لو تمكّن من القلب - سلوى تفوق كل عزاء يقوله الخلق. وقد أثر عن السلف أن هذا الأصل من أعظم ما يُعين على الرضا بالقضاء.



تَبْرَكَ الَّذِي يَدُهُ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

سورة الملك، الآية 1

افتتاحية هذه السورة تضع الملك كله -من أصغر ذرة إلى أعظم مجرة- في يد واحدة. فمن وزّع قلبه بين أرباب متفرقين يرجو هذا ويخشى ذاك، فليجمع قلبه على يد واحدة يستقر عندها الملك كله، فإذا أيقن هذا لم يعد يخشى فوات شيء بيد غيرها، ولا يطمع في عطاء من لا يملك شيئاً أصلاً.

هكذا يتضح أن قدرة الله لا تتوقف عند لحظة الخلق الأول، بل تتجدد كل يوم تدبيراً وتصريفاً: في الملك يُؤتى وينزع، وفي الشمس والقمر الدائبن، وفي كل ورقة تسقط، وفي كل مصيبة مكتوبة قبل وقوعها. فليعيش العبد بهذا اليقين لا بجانبه: أن يد التدبير التي أحكمت الكون كله لن تهمل شأنه الصغير، ولو حسبه هو صغيراً لا يستحق الالتفات.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُعْجِزُهُنَّ الْمَخْلُوقُونَ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

هنا تختم رحلة كتيب الآيات، بعد أن طُفنا بين إطلاق القدرة الأول، وخلق السماوات والأرض، والإحياء والإماتة، والآيات الكونية، والبعث والنشور، إلى هذا التدبير المتجدد الذي لا ينقطع. وما كل ما مررنا به من آيات إلا شواهد متعددة على حقيقة واحدة ينبغي أن تستقر في القلب: أنه سبحانه على كل شيء قدير. فما من أمر عسير على العبد إلا وهو على ربه يسير، وما من مستحيل في عين

العبد إلا وهو بين يدي قدرته هين. فليسلم العبد قلبه لمن هذه صفته، وليمض في حياته موقناً أن الذي أحكم هذا الكون كله لن يضيعه، ولن يعجز عن إجابته.

الجزء الثاني

الأحاديث النبوية عن قدرة الله

* * *

قدرة الله وإعجازه

— كَتَبَ الأَحَادِيثَ النَّبَوِيَّةَ —

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إِصْبَعٍ
«أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ»

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، أما بعد:

فهذا كتيب موجز يكلل كتيب "آيات القدرة"، نجمع فيه ما صحّ من سنة النبي ﷺ في وصف قدرة الله عز وجل. وقد التزمنا في اختيار الأحاديث الصحة، فاعتمدنا على ما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم أو انفرد به أحدهما، ولم نذكر ما سوى ذلك إلا مع بيان درجته صراحة. وقد رتبنا الأحاديث بحسب موضوعها: من قدرته في التقدير والكتابة الأزلية، إلى قدرته في الإمساك والطي والتدبير، إلى استغناؤه المطلق عن خلقه. وآثرنا أن يكون التعليق على كل حديث بأسلوب ابن القيم رحمه الله وحده، وعظماً للقلب وعلاجاً لأدوائه. نسأل الله أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

أولاً: قدرته في التقدير والكتابة الأزلية



عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»

رواه مسلم (2653)

تأمل أن كل تفاصيل حياة العبد كانت مكتوبة قبل أن يُخلق شيء من هذا الكون بخمسين ألف سنة. فمن كان قلقاً على غدٍ لم يأتِ بعد، فليعلم أن ما يقلقه اليوم كان معلوماً عند ربه قبل أن تُخلق السماوات والأرض بدهرٍ لا يُقاس. فلا يحسبن العبد ما يجري له مفاجأة تُربك علم ربه، ولا قدراً يتعجل أو يتأخر عما كُتب، فإن هذا من أصول الطمأنينة التي ينبغي أن يبنى عليها القلب.



عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»

حديث حسن، رواه أبو داود (4700) والترمذي، وحسنه الألباني

تأمل وصية عبادة بن الصامت لابنه قبل أن يروي الحديث: أن طعم حقيقة الإيمان لا يُذاق إلا بهذا الأصل. فمن أراد أن يجد حلاوة الإيمان في قلبه، فليتعلم هذا الدرس: أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وهذا دواءٌ نافع لداء التحسّر على ما فات، إذ يعلم العبد أن الفائت لم يكن له أصلاً، وأن الحاصل لم يكن ليخطئه مهما بدت أسبابه بعيدة.



عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»

حديث حسن صحيح، رواه الترمذي (2516)

هذا الحديث من جوامع الكلم التي ينبغي أن يحفظها كل سالك في أول طريقه، كما حفظها ابن عباس صغيراً. وفيه أصل عظيم لعلاج تعلق القلب بالخلق: أن النفع والضرر بيد الله وحده، فلو اجتمعت الأمة كلها على نفع العبد أو ضرره لم تتجاوز ما كُتب له أو عليه. فمن استحضر هذا الأصل، تحرّر قلبه من رهبة الناس وطمعهم، وصار اعتماده على ربه وحده لا على أسبابه الظاهرة.

ثانياً: قدرته في الإمساك والطي والتدبير



عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء خبرٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، إن الله تعالى يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالْثَرَى عَلَى إصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إصْبَعٍ، ثُمَّ يَهْزُهُنَّ فَيَقُولُ: «أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ». فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال الخبر، تصديقاً له، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾

متفق عليه: رواه البخاري (7414) ومسلم (2786)

تأمل أن هذا الكون الهائل -سماواته وأرضه وجباله وبحاره- بين قدرة لا يُثقلها إمساكه ولا تعجز عن هزّه. فمن استكبر بشأن يظنه عصياً على الحل، فليسأل نفسه: أيّ أمر يستعصي على من هذه أصابعه؟ وقد أثبت أهل السنة والجماعة لله صفة الأصابع كما وردت، على الوجه اللائق بجلاله، دون تشبيه ولا تعطيل، وفي هذا سلامة القلب من الانحراف في هذا الباب العظيم.



عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يَطْوِي اللَّهُ عَرْشَ وَجَلِّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيَمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»

متفق عليه: رواه البخاري ومسلم

تأمل السماوات كلها تُطوى في يد واحدة كطي ورقة صغيرة. فمن تشاخص بمالٍ أو جاهٍ لا يساوي ذرة أمام هذا المشهد، فأين يذهب كبرياؤه حين يُنادى "أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟" وهو أهون على تلك اليد من أن تُطوى معه السماء؟ وقد ثبت في حديث آخر أن الكبرياء رداء الله، فمن نازعه فيها قصمه، فليحذر العبد من هذا الداء الخفي الذي يُهلك صاحبه وهو لا يشعر.



عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال:
«اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ،
فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ
شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ
فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ
دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»

رواه مسلم (2713)

هذا دعاء يُقال عند النوم، أضعف حالات العبد وأشد غفلته عن نفسه، ليذكره قبل
أن تغمض عيناه أنه تحت يد آخذة بناصية كل شيء. فمن خاف في ظلمة ليله من
شَرِّ يترصده وهو نائم لا حول له، فليستودع نفسه من هذا الأول الذي لا شيء
قبله، والآخر الذي لا شيء بعده، ولينم قرير العين، فناصيته بيد لا تنام ولا تغفل.

ثالثاً: قدرته في الاستغناء المطلق عن خلقه



عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما روى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «... يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْخَيْطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»

رواه مسلم (2577) — حديث قدسي

تأمل أن طاعة الخلق كلهم لا تزيد في ملكه شيئاً، ومعصيتهم كلهم لا تنقص منه شيئاً. فمن عبد الله رجاء أن ينفعه بطاعته، فليعلم أن نفعه عائدٌ إليه هو لا إلى ربه، وهذا من أعظم ما يُخَلِّصُ العبادة من شوائب المنّة والاستكثار. وتأمل مثل "الخيط إذا أُدْخِلَ البحر" لتقريب معنى عدم النقصان مهما أُعْطِيَ، فليسأل العبد ربه بلا حياء، فإن خزائنه لا تنفذ بكثرة السائلين.



تَمَّةُ الْحَدِيثِ الْقَدْسِيِّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ
أُحْصِيَهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُؤْفِكُكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ
ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»

رواه مسلم (2577) - حديث قدسي، تَمَّةُ الْحَدِيثِ السَّابِقِ

تأمل أن هذا الحديث القدسي العظيم، بعد أن قرر غنى الله المطلق، ختم برّد الأمر
إلى عمل العبد نفسه. فمن كان محتجاً بالقدر على تقصيره، فليعلم أن هذا الاحتجاج
باطل، إذ الجزء مبني على عمل ظاهر يُحاسب عليه، لا على قدر غيبي يُعفيه من
المسؤولية. فليجتهد العبد في عمله، فإن وجد خيراً حمد الله، وإن وجد غير ذلك لم يلم
إلا نفسه.

خاتمة

هكذا تتكامل السنة مع القرآن في تقرير حقيقة واحدة: أن الله عز وجل يمسك هذا الكون الهائل على إصبع، ويطويه يوم القيامة بيد واحدة، وقد كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق شيئاً من هذا الكون بخمسين ألف سنة، وهو مع كل هذه القدرة العظيمة غني عن خلقه غنى مطلقاً، لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم. فليجمع العبد بين معرفة هذه القدرة ومعرفة هذا الغنى، فيعيش عبداً حقاً: يخاف الله ولا يخاف سواه، ويرجوه ولا يرجو غيره، ويسلم له أمره كله، موقناً أن الذي بيده كل شيء لن يضيع من توكل عليه.

والحمد لله رب العالمين.

المراجع

◆ أولاً: مصادر النص القرآني

- القرآن الكريم — برواية حفص عن عاصم.

◆ ثانياً: مصدر الأسلوب الوعظي

- محمد بن أبي بكر ابن قيمّ الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.
- محمد بن أبي بكر ابن قيمّ الجوزية، الفوائد.
- محمد بن أبي بكر ابن قيمّ الجوزية، الداء والدواء (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي).
- محمد بن أبي بكر ابن قيمّ الجوزية، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان.
- محمد بن أبي بكر ابن قيمّ الجوزية، طريق المهجرتين وباب السعادتين.

◆ ثالثاً: مصادر الحديث النبوي

- محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري).
- مسلم بن الحجاج النيسابوري، المسند الصحيح المختصر (صحيح مسلم).
- سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود.

- محمد بن عيسى الترمذي، الجامع (سنن الترمذي).
- محمد ناصر الدين الألباني، أحكام تخريج وتصحيح وتحسين الأحاديث (لأحاديث سنن أبي داود والترمذي المذكورة في كتيب الأحاديث).